دفع الغم من الموت في الفلسفة الإسلاميَّة
تنظير في أطروحات ابن مسكويه الفلسفيَّة والأخلاقيَّة

علا الخطيب محمد
باحثة في فلسفة الأخلاق- مصر

ملخّص إجمالي:

مثَّل الخوفُ من الموت غمًّا كبيرًا وهمًّا ثقيلاً على الإنسان منذ أن وعى أنَّه ميت لا محالة، ولذلك عملت فلسفات كثيرة على مدار التاريخ البشريِّ لدرء هذا الغمِّ وذاك الهمِّ. لكن المهمَّة كانت صعبة للغاية، ففي حين عجزت الفلسفة الغربيَّة، قديمها وحديثها، عن درء الغمِّ من الموت، ورأت أنَّ السبيل الأمثل هو تجاهل الأمر وألَّا يفكر الناس فيه حتى ينعموا بحياتهم، قدَّمت الفلسفة الإسلاميَّة ممثلةً في ابن مسكويه محاولة جديرة بالاهتمام في هذا الإطار؛ ذاهبةً إلى أنَّ الخوف من الموت يتمثَّل في الجهل بماهيَّة الموت، وأنَّ الإنسان لا يعلم مصير نفسه، والظنّ بأنَّ تحلُّل الجسد يعني فناء النفس، والجهل ببقاء النفس وكيفيَّة معادها، والظنّ بأنَّ للموت ألمًا عظيمًا، والخوف من العقاب بعد الموت، والأسف على ما تركه المرء من مالٍ وولد. وينتهي ابن مسكويه - في براعة غير مسبوقة - إلى تفنيد تلك المخاوف بطريقة فلسفيَّة تأنس بتعاليم الشريعة وتتَّسم بحسٍّ صوفيٍّ غائيّ. ورغم تفرُّد محاولته وتميُّزها غفل عنها الكثيرون من دارسي الفلسفة الإسلاميَّة، بل نسبوا رسالته "الخوف من الموت-أسبابه وعلاجه" خطأً إلى ابن سينا متابعين في ذلك أحد المستشرقين الذي أخطأ ووضعها ضمن رسائل الشيخ الرئيس.

* * *

مفردات مفتاحيَّة: الموت – الاحتضار – ابن مسكويه- خلود النفس- بقاء البدن-قلق الموت.

المبدأ
العدد التاسع - 1446هـ - ربيع 2024م

مقدمة

لم تستسلم الفلسفة الإسلاميَّة لغموض موضوع الموت بوصفه لغزًا لا يمكن فكُّ طلاسمه، أو بوصفه معضلة لا يمكن الوقوف على حقيقتها أو سبر أغوارها كما فعلت غيرها من الفلسفات والثقافات؛ إذ تمتلك الفلسفة الإسلاميَّة تراثًا ضخمًا يقدِّم إجابات ويحمل توضيحات، بشكل ثريٍّ للغاية، حول أسئلة الإنسان واستفهاماته حول الموت ممَّا يزيل الكثير من الغموض حول هذا الموضوع الشائك. وهو الأمر الذي عجزت عنه الفلسفة الغربيَّة -على سبيل المثال- التي نظرت إلى الموت بوصفه موضوعًا كريهًا مزعجًا لا يشجِّع على التفكير فيه، أو الحديث عنه، أو التفلسف حوله، فعملتْ على تجاهله أو تناسيه بشتَّى الحيل والأساليب رغم حضوره الفعليِّ القويِّ في كلِّ وقت وحين. وهذا ما نجده بوضوح لدى الفيلسوف الفرنسيِّ بليز بسكالBlaise Pascal 1623 - 1662، وهو واحد من أكبر فلاسفة الغرب في العصر الحديث، الذي رأى أنَّه لمَّا لم يجد الناس علاجًا للموت والشقاء والجهل، فإنَّهم قد وجدوا خير الطرق لأن ينعموا بالسعادة ألَّا يفكِّروا في هذا الأمر على الإطلاق. حتى هؤلاء الفلاسفة الذين أولوا اهتمامًا ملحوظًا بالموت لم يتناولوا الموضوع في ذاته، معتبرين أنَّه تجربة شخصيَّة لا يقف على حقيقتها إلَّا من يمرُّ بها، ولذلك تجاوزوا المشكلة إلى ما بعدها لتتحوَّل دراساتهم من بحث مشكلة الموت في ذاتها إلى البحث في إمكانيَّة الخلود.

لكن هذا - كما أشرنا - لم يكن شأن الفيلسوف المسلم؛ إذ لم يتوقَّف عند تلك الإجابات الدينيَّة المشهورة - رغم ثرائها - حول مسألة الموت، بل راح يفلسف المسألة برمَّتها بطريقته الخاصَّة، ليذهب بها بعيدًا، فلم يتوقَّف عند الظاهر في مسألة اعتبرها ميتافيزيقيَّة خالصة، وانشغل ببحث بواطنها وسبر أغوارها. ولم يكن دافعه الرئيس في ذلك هو البحث الفلسفيَّ المجرَّد لماهيَّة الموت بقدر ما كان دافعًا عمليًّا يتغيَّا دفع الغمِّ الذي يصيب الإنسان عندما يتيقَّن أنَّ الموت ضرورة حتميَّة للوجود البشريِّ، وأنَّه شخصيًّا حتمًا سيمرُّ بتلك التجربة. بل إنَّ هذا الخوف من الموت لم يتوقَّف عند الخوف على الذات فحسب، بل أيضًا تجاوز الذات نفسها ليشمل الخوف على الآباء والأبناء وسائر الأحباب. فقد أدرك الإنسان أنَّ الموت باطن في صميم الحياة، إذ لا يموت لأنَّه يمرض أو يهرم أو يضعف، بل لأنَّه يحيا.

وإذا ما وقفنا وقفة تحليليَّة مع عناصر الخوف التي تملأ النفس غمًّا وهمًّا من تصوُّر الموت نراها مجملةً ناجمة عن عدم دراية الإنسان بماهيَّة الموت على الحقيقة، وعن تصوُّر رهبة الهوَّة التي سوف يغيب فيها الإنسان عند موته (وهي الهوَّة الفارغة أبدًا أمامه)، وأنَّ الإنسان لا يعلم مصير نفسه في رحلته الأبديَّة في عالم مجهول، وأنَّ الظنون تغالبه بأنَّه إذا تحلَّل جسده فقد بطلت نفسه

واندثرت، وجهله- أيضًا- بكيفيَّة بقاء النفس بعد الموت، وعلى أيِّ حال يكون معادها. والظنّ بأنَّ للموت ألمًا عظيمًا، غير ألم الأمراض التي تسبق موت الإنسان وتؤدّي إلى موته، والاعتقاد بأنَّ عقوبة ستنزل به بعد الموت، والأسف والحزن على انقطاع الصِّلات بمن وبما يتعلَّق به الإنسان في حياته، والأسف على ما تركه من المال والولد.

لقد كانت هذه المخاوف التي حدَّدها الفيلسوف المسلم أكثر واقعيَّة وعقلانيَّة من تلك المخاوف التي ملأت نفوس الغربيين؛ حيث كان الخوف من الموت عظيمًا عند اليونانيين القدماء بما توارثوه من أساطير عن القدر الذي يعبث بالبشر عبثًا، وبما حشدت هذه الأساطير في العالم الآخر من حيوانات مرعبة وعذاب أليم من الممكن أن يحلَّ بأيِّ إنسان، وما تداولوه عن أنَّ الموت سقوط لا نهائيٌّ في نفق أسود، وهو رحلة بلا عودة في دهاليز العالم الآخر بوحوشه المرعبة التي يصعب تخيُّلها. ولذلك، لم يكن غريبًا على فلاسفة الغرب أن يتجاهلوا مشكلة الموت معتبرين أنَّ التفكير الدَّائم فيه سيكون أشبه بكابوس مرعب يحيل الحياة إلى جحيم لا يتوقَّف إلَّا بالموت ذاته.

من ثمَّ كان سعي فلاسفة الإسلام ومتصوِّفته من أمثال: "أبي حيان التوحيدي (310—414ه)"، و"أبي علي ابن مسكويه (320-421 ه)"[1]، و«أبي العلاء المعرّي (363-449ه»، و«أبي حامد الغزالي (450-505 هـ)»، و«محي الدين بن عربي (558-638ه)»، إلى دفع هذا الغمِّ من نفوس المسلمين، وبثِّ نوع من الطمأنينة تطوَّرت - بفضل جهودهم جميعًا- حتى وصلت إلى أنَّ الموت أفضل الأشياء، فهو جزءٌ أصيلٌ من مكوِّنات الكائن الحيِّ، وهو توجُّهٌ نحو الكمال والتحرُّر من النقص، فمصير الإنسان أن يجتاز الحياة وينتظر الموت؛ إذ إنَّه يحتضر منذ اللَّحظة الأولى للولادة.

فما هو الموت؟ وما هي أهمُّ المخاوف التي تعتري الإنسان عندما يفكِّر فيه؟ وهل من سبيل لدرء هذه المخاوف؟ وكيف أدلى فلاسفة الإسلام بدلوهم حول ميتافيزيقا الموت؟ وهل حاولوا درء الغمِّ منه بطريقة فلسفيَّة عقلانيَّة مغايرة للشرح الدينيِّ أم متمِّمة له؟ وإلى أيِّ مدى نجح فلاسفة الإسلام في هذه المحاولة؟ وهل تميَّزت محاولة ابن مسكويه عن سائر المحاولات التي سبقتها أو لحقتها في هذا الإطار حتى تستحقَّ أن تكون أنموذجًا لهذه الدراسة؟ وإلى أيِّ مدى تكمن أهميَّة دراستها ومقاربتها في إطار ميتافيزيقا الموت والاحتضار؟

---

[1]- هو: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، ولد في مدينة الريِّ ببلاد فارس ما بين سنتي 320 330- ه، وتوفيّ في أصفهان عام421 هـ. أشتهر بـ «ابن مسكويه»، ولقِّبه البعض بـ «مسكويه»، كانت له علاقات قويَّة ببلاط «آل بويه»، لازم ابن العميد وتتلمذ على مؤلَّفاته. ترك الريَّ وهاجر إلى أصفهان عقب الاضطرابات السياسيَّة التي شهدتها مدينة الريِّ، وترحيب «ابن كاكويه» حاكم أصفهان بالعلماء والأدباء والمفكِّرين. ومن أهمِّ مؤلَّفاته: آداب العرب والفرس، أحوال الحكماء المتقدّمين، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، أدب الدنيا والدين، أُنس الخواطر، تجارب الأمم وعواقب الهمم، ترتيب السعادات، جوهر النفس، حقائق النفوس، الدهر والزمان، السياسة السلطانيَّة، الفوز الأكبر، الفوز الأصغر، العقل والمعقول، رسالة في الطبيعة، اللَّذة والألم، الجامع... وغيرها من المصنَّفات التي بلغت حوالي 28 مصنفًا ما بين كتاب ورسالة.

المبدأ LMOLMABDAA
العدد التاسع - 1446هـ - ربيع 2024م

للإجابة عن هذه الأسئلة التي تتمحور حولها هذه الدراسة، راعينا استخدام المنهج التحليليِّ بغية تحليل النصوص والوقوف على حقيقة معناها، كما استخدمنا المنهج المقارن الذي يضع محاولة ابن مسكويه في دفع الغمِّ من الموت في مكانتها الحقيقيَّة بين دارسي «ميتافيزيقا الموت» من السابقين واللاَّحقين. ويبقى المنهج النقديُّ هو الأنسب لبيان أوجه القوَّة والضعف في معالجته ومقاربته لموضوع دفع الغمِّ من الموت.

وتكمن أهميَّة هذا البحث في أنَّه- على حدِّ علمي- أول بحث يتناول محاولة ابن مسكويه لدرء الغمِّ من الموت، من أجل إلقاء الضوء على تفاصيلها المهمَّة، وعمل مقاربة تحليليَّة نقديَّة لآرائه فيها، ثمَّ مقارنتها مع آراء سابقيه ولاحقيه ممَّن تناولوا موضوع قلق الموت والخوف منه بالبحث والدراسة والاهتمام. كما يعمل على تصحيح نسب رسالته في «الخوف من الموت – أسبابه وعلاجه» إليه بدلاً من نسبتها خطأً للشيخ الرئيس ابن سينا. كما تلقي بصيصًا من الضوء على بعض اسهامات ابن مسكويه الذي وجد تجاهلاً غير مفهوم حتى تساءل عن ذلك المفكِّر الجزائريّ محمد أركون (1928-2010)، قائلاً: «كيف يمكن لمفكِّر في مثل هذا الحجم والأهميَّة أن يثير مثل هذا القدر الضئيل من الاهتمام؟»[1].

لمعالجة هذا الموضوع معالجة وافية قمنا بتقسيمه إلى مقدِّمة، وثلاثة محاور رئيسة، وخاتمة؛ تناولت المقدِّمة طبيعة الموضوع، وأهميَّته، وتساؤلاته، ومناهجه. بينما تناول المحور الأول: ماهيَّة الموت. في حين عالج المحور الثاني: دفع الغمِّ من الموت عند ابن مسكويه، ليلقي المحور الثالث نظرة نقديَّة مقارنة حول محاولة ابن مسكويه ليجيء تحت عنوان: تميُّز ميتافيزيقا الموت عند ابن مسكويه عن سابقيه ولاحقيه. أمَّا الخاتمة فرصدت أهمَّ النتائج التي توصَّل إليها هذا البحث.

أوَّلًا: ماهيَّة الموت

لمَّا كان الموت من المواقف النهائيَّة التي يصطدم بها الإنسان، وهو يخبر الفناء كحدٍّ لوجوده، والموت واحد من أفجع حدوده، وهو أكبر مصدر لقلقه وهلعه، فالموت معلَّق على الرِّقاب، يهزُّ الإنسان هزًّا إذا ما تذكَّر تربُّصه الدائم به، ووعده الذي لا يخلفه أنَّه لا محالة نائلٌ منه. ومن ثمَّ اهتمَّ الإنسان بمعرفة ماهيَّة الموت حتى يمكنه بالمعرفة التخلُّص من هذا الخوف وذلك الهلع.

يعُرَّف الموت بصفة عامَّة بأنَّه مفارقة الحياة، فالموت ضدُّ الحياة. ويُعرَّف بيولوجيًّا بأنَّه توقُّف دائم للوظائف الحيويَّة والعمليَّات البيولوجيَّة التي تحافظ على وجود الكائن الحيِّ على قيد

[1]- محمد أركون، نزعة الأنسنة في الفكر العربيِّ – جيل مسكويه والتوحيديّ، ترجمة هاشم صالح، بيروت، دار الساقي، ط2، 2006، ص98.

الحياة[1]. ويُعرَّف كذلك سلوكيًّا بأنَّه «كفٌّ دائم للوعي والشعور، وتوقُّف المخِّ عن أداء دور «القائد أو المايسترو» بالنسبة إلى العمليَّات الحركيَّة والحسّيَّة والوظائف العقليَّة [2].

كما عرَّف الجرجاني الموت بأنَّه «صفة وجوديَّة خلقتْ ضدًّا للحياة. وباصطلاح أهل الحقِّ: قمعُ هوى النفس، فمن مات عن هواه فقد حيي بهداه»[3]. وقد رأى أنَّ للموت ألوانًا كثيرة؛ فمنه الموت الأحمر وهو مخالفة النفس. والموت الأبيض وهو الجوع؛ لأنَّه ينوِّر الباطن ويبيِّض وجه القلب، فمن ماتت بطنته حَييتْ فطنته. والموت الأخضر وهو لبس المرقَّع من الخرقِ الملقَاة التي لا قيمة لها لاخضرار عيشه بالقناعة. والموت الأسود وهو احتمال أذى الخلق، وهو الفناء في الله لشهود الأذى منه برؤية فناء الأفعال في فعل محبوبه [4].

كما عرَّفه الراغب الأصفهانيُّ (ت502 ه) بأنَّه انتقال «من دار إلى دار، حتى يستقرَّ بكم القرار، فهو وإن كان في الظاهر فناءً واضمحلالاً إلَّا أنَّه في الحقيقة ولادة ثانية... ولولا هذا الموت لم يكمل الإنسان، فالموت إذن ضروريٌّ في كمال للإنسان، ولكون الموت سببًا للانتقال من حال أوضع إلى حال أشرف وأرفع سماه الله تعالى توفيًا» [5].

ويعرِّف الفلاسفة الموت بأنَّه توقُّف النفس عن استعمال آلات الجسد. وقد اعتبروه ملهم الفلسفة؛ إذ عرَّف سقراط الفلسفة بأنَّها «معرفة الموت» فإنه من دون الموت لا يمكن للبشر أن يتفلسفوا.

ومن أشهر تعريفات الفلاسفة للموت هو تعريف ابن مسكويه الذي يقول:»الموت ليس شيئًا أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها وهي الأعضاء التي مجموعها يسمَّى بدنًا كما يترك الصانع استعمال آلاته»»[6]. ويسهب في شرح وبيان هذا التعريف قائلاً بأنّه: «مفارقة النفس البدن، وهذه المفارقة ليست فسادًا للنفس، وإنَّما هي فساد المتركب. وأمَّا جوهر النفس الذي هو ذات الإنسان ولبُّه وخلاصته فهو باق، وليس بجسم فيلزم فيه ما لزم في الأجسام... بل لا يلزمه شيء من أعراض الأجسام، أي لا يتزاحم في المكان، لاستغنائه عن المكان ولا يحرص على البقاء الزمانيِّ لاستغنائه

---

[1]- See, John Daintith, Elizabeth A. Martin, A Dictionary of Science, Oxford University press, New York, 2010, p.223.

[2]- أحمد محمد عبد الخالق، قلق الموت، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة (111)، مارس 1987، ص15.

[3]- الجرجاني، التعريفات، تحقيق محمد علي أبو العباس، القاهرة، دار الطلائع للنشر والتوزيع، 2014، ص229.

[4]- المرجع السابق، ص229-230.

[5]- الراغب الأصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1983، ص 116.

[6]- ابن مسكويه، الخوف من الموت- أسبابه وعلاجه، منشورة بكتابه «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق أو كتاب الطهارة في تهذيب الأخلاق»، تحقيق: السيد حسين المؤمني، طهران، المعهد العالي للعلوم والثقافة الإسلاميَّة- مركز إحياء التراث الإسلامي، ط1، 2016، ص 274.

عن الزمان، وإنَّما استفاد بالحواسِّ والأجسام كمالاً، فإذا كمل بها ثمَّ خلص منها؛ صار إلى عالمه الشريف، القريب إلى بارئه ومُنشئه تعالى وتقدَّس»[1].

من جانبهم، ذهب صوفيَّة الإسلام إلى أنَّ الموت هو الحجاب عن أنوار المكاشفات والتجلّي. بينما رأى الفلاسفة أنَّ الموت هو تعطُّل قوى النفس عن أفعالها، وتركها استعمال الجسد. وقيل الموت موتان: طبيعي وإرادي؛ والحياة حياتان: طبيعية وإرادية. والموت الإرادي يعنون به إحياء النفس بإماتة الشهوات، والحياة الطبيعيَّة بقاء النفس في الغبطة الأبديَّة بما تستفيده من العلوم الحقيقيَّة وتبرأ به من الجهل، ولذلك أوصى أفلاطون طالب الحكمة فقال: «مت بالإرادة تحيَ بالطبيعة». وقال سقراط:» إن حياة الإنسان ممارسة للموت»[2].

وقد نظر فلاسفة الإسلام إلى الموت من خلال علاقة النفس بالجسد؛ فالنفس عندهم إلهيَّة خالدة ومصدرها عالم إلهيٌّ خالد، ولا تفنى بفناء الجسد بعد الموت، ولكن الموت عندهم مفارقة النفس لهذا الجسد، وتكون هذه المفارقة على شكلين: أوَّلهما أخلاقيٌّ وذلك بإماتة شهوات الجسد لصالح النفس كي يكون الإنسان فاضلاً خيراً سعيدًا، وثانيهما موت ميتافيزيقيٌّ؛ وذلك عن طريق مفارقة النفس الجسد نهائيًّا عن طريق موت الجسد وبقاء النفس خالدة في عالمها الذي جاءت منه، مع ملاحظة أنَّ هؤلاء الفلاسفة عندما يتحدَّثون عن النفس يعنون بها الروح [3].

من هنا، لم يعد الموت عند فلاسفة الإسلام ذلك المجهول الذي يبثُّ الخوف والرَّهبة في النفوس، ولكنه قضاء الله وحكمته في أن يعيش المرء عمرًا زائلاً في الدنيا، ثمَّ يعيش عمرًا خالدًا في الآخرة. ومن ثمَّ كان اهتمام هؤلاء الفلاسفة بدفع الغمِّ من الموت؛ ذلك الغمِّ الذي هو خبرة انفعاليَّة غير سارة تدور حول الموت والموضوعات المتَّصلة به، وقد تؤدّي هذه الخبرة إلى التعجيل بموت الفرد نفسه. ومن أجل ذلك اهتمّوا بضرورة دفع هذا الغمِّ من الموت، وكان من أشهر تلك المحاولات محاولة ابن مسكويه التي نحن بصدد الوقوف معها.

من المهمِّ أن نشير إلى أنَّ ابن مسكويه في محاولته هذه كان استمرارًا لما ذهب إليه أول فلاسفة العرب ابن اسحق الكندي الذي حاول درء الغمِّ من الموت بطريقة عقليَّة فلسفيَّة في رسالته المسمَّاة «في الحيلة لدفع الأحزان»؛ فمع اعترافه بضرورة خوف الإنسان من الموت سواء كان خوفه بسبب موت بعض أهله، أم خوفه من وقوع الموت له شخصيًّا، ومع اعترافه بأنَّ الموت حقٌّ ولا نجاة لأحد منه مهما احتاط لذلك، لكنَّه رأى أنَّ الموت جزءٌ أصيلٌ من مكوِّنات الكائن الحيِّ؛ فإذا كان الإنسان

---

[1]- المصدر السابق، ص 279.

[2]- عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط3، 2000، ص 851.

[3]- حيدر ناظم محمد، ريام حسن سوادي، الموت من الفلسفة اليونانيَّة إلى العصور الوسطى، بغداد، بيت الحكمة، مجلة دراسات فلسفيَّة، العدد 51، ص 134.

هو الكائن الحيَّ الناطق فإنَّ الموت جزء من ماهيَّته، فالإنسان في تعريفه الأدقِّ كائنٌ حيٌّ ناطقٌ مائت. ومن ثمَّ كان الموت كمالاً للإنسان، فجوهر الإنسان هو الروح أو النفس وهو الجزء الخالد، أمَّا البدن فهو فان. وعلى ذلك لا سبيل للخوف من الموت؛ لأنَّ الموت تمام لطبيعتنا، ومن دونه لن يوجد إنسان أبدًا، لأنّه إن لم يمت لم يكن إنسانًا، ولخرج عن طبيعته الإنسانيَّة.[1]

ثانيًا- دفع الغمِّ من الموت عند ابن مسكويه

سَلَّمَ ابن مسكويه في رسالته في «الخوف من الموت، أسبابه وعلاجه»[2] بخوف الإنسان من الموت؛ وحدَّد تلك المخاوف وأوجزها في فقرة مهمَّة، قال فيها: «إنَّ الخوف من الموت ليس يعرض إلَّا لمن لا يدري ما الموت على الحقيقة، أو لا يعلم إلى أين تصير نفسه، أو لأنَّه يظنُّ أنَّ بدنه إذا انحلَّ وبطُل تركيبه؛ فقد انحلَّت ذاته وبطُلت نفسه بطلان عدمٍ ودثور، وأنَّ العالم سيبقى موجودًا بعده وهو ليس بموجودٍ فيه، كما يظنُّه من يجهل بقاء النفس وكيفيَّة المعاد. أو لأنَّه يظنُّ أنَّ للموت ألماً عظيمًا غير ألم الأمراض التي ربما تقدَّمته وأدَّت إليه وكانت سبب حلوله، أو لأنَّه يعتقد عقوبة تحلُّ به بعد الموت، أو لأنَّه متحيّر لا يدري على أيِّ شيء يُقدم بعد الموت، أو لأنَّه يأسف على ما يخلِّفه من المال والمقتنيات»[3]. ثمَّ يقرِّر مؤكِّدًا أنَّ هذه كلَّها ظنون باطلة ومخاوف لا حقيقة لها.

لذلك، سعى ابن مسكويه جاهدًا لدفع هذا الخوف وتفنيد تلك الظنون التي أقرَّ مقدَّمًا بزيفها وبطلانها، وأنَّه لا ينبغي على الإنسان العاقل أن يعتدَّ بها، فيغتمَّ ويصيبه الهمُّ جرَّاء تفكيره فيها. فهي إذن مخاوف لا مبرِّر لها؛ حيث إنَّ الموت-نفسه- ما هو إلَّا مفارقة البدن للنفس، والأصل في الإنسان هي النفس، والنفس لا تموت أو تفنى بفناء الجسد، بل تظلُّ حيَّة خالدة بعد الموت. وعلى ذلك، لا يكون الموت نهاية، بل هو انتقالٌ من حالٍ إلى حالٍ، أو من دارٍ إلى دارٍ، وهو اكتمال لحياة

---

[1]- أنظر، الكندي، في الحيلة لدفع الأحزان، ضمن رسائل فلسفيَّة، تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي، بيروت، دار الأندلس، ط2، 1980، ص 28.

[2]- نشرها المستشرق الدانماركي أوغست فرديناند ميُرن August Ferdinand Mehren 1822- 1898 ضمن مجموعة أخرى من رسائل ابن سينا الصوفيَّة في: "رسائل الشيخ الرئيس أبي علي بن الحسين بن عبدالله بن سينا في أسرار الحكمة المشرقية" عام 1889م تحت عنوان: "رسالة في دفع الغم من الموت" عن مخطوطتين إحداهما في ليدن، والأخرى في المتحف الأسيويّ في بطرسبرغ (لينينغراد، روسيا الحالية) ناسبًا إياها إلى ابن سينا، وعندما لاحظ ميُرن التشابه الكبير بين هذه الرسالة وبين ما جاء في كتاب "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق" لابن مسكويه اعتبر أنَّ الأخير قد نقله عن الأول من دون إشارة إليه، وهذا بالقطع لا يليق بأخلاقه وأمانته العلميَّة ، حيث كان دائمًا يشير إلى من أخذ عنهم في كتاباته بشكل ملحوظ. وهو الأمر الذي أيَّده أحمد تيمور باشا، والأب لويس شيخو، والدكتور قسطنطين زريق، مؤكّدين على صحَّة نسبها إليه، حيث رأوا أنَّ هذا المقطع الذي يحوي الرسالة قد اقتطع من التهذيب ونُسب خطأً إلى ابن سينا (أنظر، قسطنطين زريق، تهذيب الأخلاق لمسكويه، بيروت، الجامعة الأميركيَّة في بيروت، 1966، ص 238-239). وللأسف لم يتنبَّه لهذا الخطأ باحثون كبار في الفلسفة الإسلاميَّة فنسبوها إلى ابن سينا، من أمثال: د. عاطف العراقي في كتابه "ثورة العقل في الفلسفة العربيَّة"، ود. الصاوي الصاوي أحمد في كتابه "ميتافيزيقا الموت عند فلاسفة الإسلام"، ود. أمل مبروك في كتابها "فلسفة الموت".. وغيرهم.

[3]- ابن مسكويه، الخوف الموت، ص 273-274.

لابدَّ من أن تكتمل. فَلِمَ الخوف - إذن - من الموت؟

في ما يلي تفصيل ابن مسكويه لبطلان تلك المخاوف كلٍّ على حدة:

الجهل بماهيَّة الموت: يرى ابن مسكويه أنَّه إذا كان الخوف من الموت راجعًا إلى أنَّ الإنسان لا يدري ماهيَّة الموت على الحقيقة؛ فإنَّه يذهب إلى أنَّه ليس شيئًا أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها، أي الأعضاء التي من مجموعها يتكوَّن البدن، فإذا فسد البدن فليس معنى ذلك فساد النفس. وفي ذلك يقول: «أمَّا مَنْ جهل الموت ولا يدري ما هو على الحقيقة فإنَّا نبيّن له أنَّ الموت ليس بشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها وهي الأعضاء التي يُسمى مجموعها بدنًا كما يترك الصانع استعمال آلاته. وأن النفس جوهر غير جسماني وليست عرضًا، وإنها غير قابلة للفساد»[1]. وهنا يعتمد ابن مسكويه على التفرقة الشهيرة في تاريخ الفلسفة الإسلاميَّة بين النفس والجسد، والقول ببقاء النفس وفناء الجسد، لكنَّه اختلف مع هذا الرأي نسبيًّا، وقال بجوهريَّة النفس والبدن معًا، ممَّا يعني عدم فناء أيٍّ منهما، وهو ما قصده في قوله: «فإنَّ الجوهر لا يفنى من حيث هو جوهر ولا تبطل ذاته، وإنَّما تبطل الأعراض والنسب والإضافات التي بينه وبين الأجسام بأضدادها. فأمَّا الجوهر فلا ضدَّ له، وكلُّ شيء يفسد فإنَّما فساده من ضدِّه»[2]. ومع ذلك ذهب إلى القول بتراتبيَّة تفاضليَّة جعل فيها النفس جوهرًا أعلى والبدن جوهرًا أخسَّ، الأول لا يقبل الفناء أو الاستحالة أو التغيُّر، بينما يقبل الثاني كلَّ هذه التغيُّرات. وقد عبَّر ابن مسكويه عن ذلك في قوله: «إنَّ جوهر النفس مفارِق لجوهر البدن مباين له كلَّ المباينة، بذاته وخواصِّه وأفعاله وآثاره، فإذا فارق البدن، كما قلنا وعلى الشريطة التي شرطنا بها، البقاء الذي يخصُّه؛ نُقّي من كدر الطبيعة، وسعد السعادة التامَّة، ولا سبيل إلى فنائه وعدمه»[3]. أمَّا الجوهر الجسمانيُّ فهو أيضًا لا يقبل الفناء أو التلاشي من حيث هو جوهر، إنَّما يستحيل بعضه إلى بعض فتُبطل خواصَّ شيءٍ شيءٌ منه وأعراضه، فأمَّا الجوهر نفسه فهو باقٍ لا سبيل إلى عدمه وبطلانه. مثال ذلك الماء فإنَّه يستحيل بخارًا وهواءً، وكذلك الهواء يستحيل ماءً ونارًا فتبطل عن الجوهر أعراضه وخواصُّه، وأمَّا الجوهر من حيث هو جوهر فإنَّه لا سبيل إلى عدمه [4]. ومن ثمَّ يخلص ابن مسكويه إلى أنَّ ماهيَّة الموت لا تعني الفناء أبدًا، إنَّما هي بقاء للجوهر الروحانيِّ (النفس) كما هو؛ حيث لا يقبل الفناء أو الاستحالة أو التغيُّر في ذاته، وإنما يقبل كمالاته وتمامات صورته. وأيضًا بقاء الجوهر الجسمانيِّ عبر تحوُّلات وتغيُّرات. فكيف بعد ذلك يتوهَّم الإنسان أنَّه قد يصير عرضة للعدم والتلاشي بعد موته؟! فهذا محض ظنٍّ لا صحَّة له.

---

[1]- المصدر السابق، ص274.
[2]- المصدر نفسه.
[3]- المصدر نفسه.
[4]- المصدر نفسه.

الجهل بمصير النفس بعد الموت: هنا ينتقل بنا ابن مسكويه إلى تفنيد ظنٍّ آخر وهو الظنُّ الذي يُرجع سبب الخوف من الموت إلى أن الإنسان لا يدري مصير نفسه ويخشى تحلُّلها. ويرى أنَّ صاحب هذا الخوف لا يخشى الموت على الحقيقة، وإنَّما يجهل ما ينبغي أن يعلمه. «فالجهل إذن هو المَخوف إذ هو سبب الخوف. وهذا الجهل هو الذي حمل الحكماء على طلب العلم والتعب به، وتركوا لأجله اللَّذات الجسمانيَّة وراحات البدن، واختاروا عليه النصب والسهر، ورأوا أن الراحة التي تكون من الجهل هي الراحة الحقيقية، وأنَّ التعب الحقيقيَّ هو تعب الجهل لأنَّه مرض مزمن للنفس، والبرء منه خلاص لها وراحة سرمديَّة ولذَّة أبديَّة»[1].

في هذا السياق، فرَّق ابن مسكويه بين نوعين من الموت ونوعين من الحياة؛ ورأى أنَّ النوع الأول من الموت هو الموت الإراديُّ ويعني به إماتة الشهوات وترك التعرُّض لها. أمَّا النوع الثاني فهو الموت الطبيعيُّ وهو مفارقة النفس للبدن. وبرأيه أنَّ النوع الأول هو الحيَّاة الإراديَّة وهي ما يسعى له الإنسان في حياته الدنيا من المآكل والمشارب والشهوات. أمَّا النوع الثاني فهو الحياة الطبيعيَّة وعنى بها بقاء النفس السرمديِّ بما تستفيده من العلوم الحقيقيَّة وتبرأ به من الجهل. ولذلك وصَّى أفلاطون طالبَ الحكمة بأن قال له: مت بالإرادة تحيَ بالطبيعة [2]. على أنَّ من خاف الموت الطبيعيَّ للإنسان فقد خاف ما ينبغي أن يرجوه؛ ذلك أنَّ هذا الموت هو تمام حد الإنسان أنَّه حيٌّ ناطقٌ ميت. فالموت تمامه وكماله، وبه يصير إلى أفقه الأعلى. ومن علم أنَّ كل شيء هو مركَّب من حدٍّ، وحدُّه مركَّب من جنسه وفصوله، وأنَّ جنس الإنسان هو الحيُّ، وفصلاه الناطق والمائت؛ عَلِمَ أنَّه سينحلُّ إلى جنسه وفصوله لأنَّه مركَّب لا محالة، منحلٌّ إلى ما تركَّب منه. فمَنْ أجهلُ ممَّن يخافُ تمامَ ذاته؟! ومَنْ أسوأ حالاً ممَّن يظنُّ أنَّ فناءه بحياته، ونقصانه بتمامه؟![3]. ومن ثمَّ يكون الموت هو المتمِّم للنقص، وأنَّ الناقص إذا خاف أن يتمَّ، فقد دلَّ من نفسه على غاية الجهل. إذن، الواجب على العاقل أن يستوحش من النقصان ويأنس بالتمام، بل يطلب كلَّ ما يتمِّمه ويكمله ويشرِّفه، ويُعلي منزلته، ويُخلي رباطه من الوجه الذي يأمن به الوقوع في الأسر، لا من الوجه الذي يشدُّ وثاقه ويزيده تركيبًا وتعقيدًا، ويثق بأنَّ الجوهر الشريف الإلهيَّ إذا تخلَّص من الجوهر الكثيف الجسمانيِّ خلاص بقاء وصفو، لا خلاص مزاج وكدر؛ فقد سعد وعاد إلى ملكوته، وقرب من بارئه، وفاز بجوار رب العالمين، وخالط الأرواح الطيّبة من أشكاله وأشباهه، ونجا من أضداده وأغياره. ومن ههنا يُعلم أنَّ من فارقت نفسه بدنه وهي مشتاقة إليه (يعني إلى بدنه) مُشفقة عليه، خائفة من فراقه؛ فهي في غاية الشقاء والبعد من ذاتها وجوهرها، سالكة إلى أبعد جهاتها من مستقرِّها، طالبة قرار ما لا قرار له [4].

---

[1]- المصدر السابق، ص 275.
[2]- المصدر السابق، ص 276.
[3]- المصدر نفسه.
[4]- المصدر نفسه.

العدد التاسع - 1446هـ - ربيع 2024م

الخوف من الألم العظيم المصاحب للموت: هنا يتوقَّف ابن مسكويه عند أمر عظيم وهو الظنُّ بأنَّ الموت يصاحبه ألمٌ عظيم - كما اعتقد الأبيقوريّون قديمًا- غير ألم الأمراض التي ربما اتُّفق أن تتقدَّم الموت وتؤدّي إليه؛ ذاهبًا إلى أنَّ هذا الظنَّ هو ظنٌّ كاذب لأنَّ الألم لا يكون إلَّا للحيِّ، والحياة ترجع إلى النفس، فإذا فقد الإنسان نفسه فإنَّه لا يتألَّم طالما أنَّ جسمه ليس فيه أثر للنفس. وبناءً على ذلك، لا يكون هناك ألم مصاحب للموت طالما أنَّ وجود الموت والنفس لا يجتمعان أبدًا، لأنَّ البدن إنَّما كان يألم ويحسُّ بأثر النفس فيه، فإذا صار جسمًا لا أثر فيه للنفس؛ فلا حسَّ له ولا ألم. فقد تبيَّن أنَّ الموت حال للبدن غير محسوس عنده ولا مؤلم/ لأنَّه فراق ما به كان يحسُّ ويتألَّم [1].

الخوف من العقاب بعد الموت: يدرأ ابن مسكويه هذا الخوف من نفس الإنسان بطريقة جدليَّة فيرى أنَّه إذا قيل بأنَّ الخوف من الموت راجع إلى الخوف من العقاب؛ فإنَّ هذا لا يعدُّ خوفًا من الموت، بل خوفًا من العقاب على الذنوب التي اقترفها الإنسان في حياته؛ وهو الأمر الذي يوضحه بقوله:" ومن اعترف بشيء باق منه بعد البدن، وهو لا محالة معترف بذنوب له وأفعال سيّئة يستحقُّ عليها العقاب، ومع ذلك هو معترف بحاكمٍ عدل يعاقب على السيّئات لا على الحسنات؛ فهو إذًا خائف من ذنوبه لا من الموت. ومن خاف عقوبة على ذنب فالواجب عليه أن يحذر ذلك الذنب ويجتنبه" [2]. هذا الأمر أكَّده في أكثر من موضع في كتابه "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق"؛ إذ يقول: "وأمَّا ما كان سببه سوء اختيارنا وجنايتنا على أنفسنا، فينبغي أن نحترز منه بترك الذنوب والجنايات التي نخاف عواقبها، ولا نقدم على أمر لا نأمن غائلته" [3]؛ لذلك يرى أنَّه يجب على الإنسان لكي يدفع عن نفسه هذا النوع من الخوف أن يبتعد عن الذنوب والمعاصي، وأن يُكثر من فعل الحسنات والأعمال الخيّرة والطيّبة، وحينئذٍ سيقبل على الموت غير هيَّابٍ ولا وجِل.

ممَّا سبق ذكره، يظهر بشكل جليٍّ مدى تأثُّر ابن مسكويه بالتعاليم الدينيَّة الإسلاميَّة، فلم يقتصر في عرضها على النظر العقليِّ فحسب، وذلك على خلاف ما ذهب إليه محمد أركون الذي رأى أنَّه من أنصار نزعة الأنسنة Humanism وأن شعاره الأساسي هو العقل أولاً. وأن عقيدته الفلسفية مبنيَّة على مبادئ ومجرَّبات عقليَّة شديدة الإكراه والتحكُّم. أمَّا الدين لديه فلا يتعدَّى كونه عبارة عن ممارسة ثقافيَّة وجملة من التوجُّهات الأخلاقيَّة المناسبة للأطفال والناس البسطاء ممَّن ليس لديهم استعداد للإدراك العقليِّ [4].

[1]- المصدر السابق، ص 277.

[2]- المصدر نفسه.

[3]- ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق أو كتاب الطهارة في تهذيب الأخلاق، تحقيق: السيد حسين المؤمني، طهران، المعهد العالي للعلوم والثقافة الإسلاميَّة- مركز إحياء التراث الإسلامي، ط1، 2016، ص 272.

[4]- محمد أركون، نزعة الأنسنة في الفكر العربي، مرجع سبق ذكره، ص 190.

الخوف ممَّا سيقدم عليه بعد الموت: قد ينتاب الإنسان الخوف من الموت؛ لأنَّه لا يدري على ما يُقدم بعده. ويرى ابن مسكويه أنَّ هذا الحال هو حال الجاهل الذي يخاف بجهله؛ فعلاجه أن يتعلَّم ليعلم ويشتاق. ثمَّ يستفيض في شرح هذه النقطة ليدفع بها جزءًا من الخوف من الموت مرتئيًا أنَّ «من أثبت لنفسه حالاً بعد الموت، ثمَّ لم يعلم ما هي تلك الحال؛ فقد أقرَّ بالجهل، وعلاج الجهل العلم. ومن عَلِمَ فقد وثق، ومن وثق فقد عرف سبيل السعادة، فهو يسلكها لا محالة، ومن سلك طريقًا مستقيمًا إلى غرضٍ صحيح؛ أفضى إليه بلا شكٍّ ولا مريَّة. وهذه الثقة التي تكون بالعلم هي اليقين، وهي حال المستبصر في دينه المتمسِّك بحكمته"[1]. وينتهي من ذلك إلى أنَّ الخائف من الموت على هذه الطريقة ومن هذه الجهة، جاهلٌ بما ينبغي أن يخاف منه، وخائف بما لا أثر له ولا خوف منه، وعلاج الجهل هو العلم. فإذن الحكمة هي التي تخلِّصنا من هذه الآلام والظنون الكاذبة، التي هي نتائج الجهالات[2].

الخوف على ما يتركه الإنسان من مال وولد: حاول ابن مسكويه أن يبطل هذا الخوف، شأنه في ذلك ما فعله بالنسبة إلى إبطال مخاوف الموت السابقة، فرأى أنَّ خوف كثير من الناس من الموت قد يعود إلى حزنهم على ما تركوه من مالٍ وولد، وممَّا فارقوه من ملاذ الدنيا وشهواتها. فيحاول أن يبرهن على بطلان هذا الخوف بطريقة عقلانيَّة فلسفيَّة؛ فيذهب إلى أنَّ الإنسان من الموجودات الكائنة الفاسدة، وكلُّ كائن فاسد لا محالة بحيث من أحبَّ ألَّا يفسد، فقد أحبَّ ألا يكون، ومن أحبَّ ألَّا يكون فقد أحبَّ فساد ذاته، فكأنَّه يحبُّ أن يفسد ويحبُّ ألَّا يفسد! ويُحبُّ أن يكون ويُحبُّ ألَّا يكون! وهذا محال لا يخطر ببال عاقل[3].

فضلاً عن ذلك، لو قلنا بأنَّه من الأفضل بقاء الإنسان دوامًا، فهذا يؤدّي إلى أنَّ الأرض سوف تضيق بالبشر؛ إذ إنَّ مساحة الأرض محدودة والبشر يتكاثرون بلا حدود، ومن ثمَّ فهي لن تسعهم مع الوقت، حتى لو كانوا قيامًا متراصّين. وفي هذا الإطار، يقول ابن مسكويه: «فإنَّه لو لم يمت أسلافنا وآباؤنا؛ لم ينته الوجود إلينا، ولو جاز أن يبقى الإنسان لبقي من تقدَّمنا، ولو بقي من تقدَّمنا من الناس على ما هم عليه من التناسل ولم يموتوا لما وسعتهم الأرض»[4]. واستحالت عمارة الدنيا والسير فيها، أو كما قال: «فإنَّهم إذا تضاعفوا هذا التضاعف لم تضبطهم كثرة ولم تحصهم عددًا. ثمَّ امسح بسيط الأرض فإنَّه محدود معروف؛ لتعلم أنَّ الأرض حينئذٍ لا تسعهم قيامًا فكيف قعودًا أو منصرفين، ولا يبقى موضع عمارة يفضل عنهم ولا مكان زراعة ولا مسير لأحد ولا حركة فضلاً عن

[1]- ابن مسكويه، الخوف الموت، ص 278.
[2]- المصدر السابق، ص 277.
[3]- المصدر السابق، ص 278.
[4]- المصدر السابق، ص 279.

غيرها، وهذه مدَّة يسيرة من الزمان فكيف إذا امتدَّ الزمان وتضاعف الناس على هذه النسبة؟!»[1].

هكذا يدفع ابن مسكويه الخوف من الموت، ويردُّ على المخاوف التي تقال حوله ببساطة ويُسر، ويبيّن لنا حال من يتمنَّى الحياة الأبديَّة للبدن ويكره الموت، ويظنُّ أنَّ ذلك ممكن أو مطموع فيه، بأنَّه في غاية الجهل والغباوة. منتهيًا إلى أنَّ الحكمة البالغة والعدل المبسوط بالتدبير الإلهيِّ هو الصواب، الذي لا معدل عنه ولا محيص منه، وهو غاية الجود الذي ليس وراءه غاية أخرى لطالب مستزيد وراغب مستفيد. والخائف منه هو الخائف من عدل الباري وحكمته، بل هو الخائف من جوده وعطائه. فقد ظهر ظهورًا حسّيًّا أنَّ الموت ليس برديء كما يظنُّه جمهور الناس، وإنَّما الرديء هو الخوف منه، وأنَّ الذي يخاف هو الجاهل به وبذاته.

ثالثًا: تميُّز ميتافيزيقا الموت عند ابن مسكويه عن سابقيه ولاحقيه

عبَّرت ميتافيزيقا الموت والاحتضار عند ابن مسكويه عن اهتمام فلسفيٍّ غلب عليه الحسُّ الصوفيُّ العميق، فجاءت رسالته «في الخوف من الموت» عميقة في معالجتها، واضحة في مقاربتها، شاملة في تصوُّراتها. حتى أنَّ الباحثين الغربيين المعاصرين عندما تناولوا الموضوع ذاته لم يذهبوا بعيدًا عمَّا ذهب هو إليه، ويظهر ذلك في مقاربة الفيلسوف جاك شورون Jacques Choron 1904 -1972 الذي حصر مخاوف الموت في ثلاثة عناصر، هي: الخوف من الاحتضار، والخوف ممَّا سيحدث بعد الموت، والخوف من توقُّف الحياة[2]. كما يظهر ذلك بصورة أجلى وأوضح في مقاربة ريتشارد شولتز Richard Schulz 1947؟ الذي أرجع الخوف من الموت إلى خمسة أسباب رئيسة، هي: الخوف من المعاناة البدنيَّة والألم عند الاحتضار. الخوف من توقُّف السَّعي نحو الأهداف؛ إذ تقاس الحياة دائمًا بما حقَّقه الإنسان. الخوف من تأثير الموت على من سيتركهم الشخص من أسرته وخصوصًا صغار الأطفال. الخوف من العقاب الإلهيّ. الخوف من العدم[3]. هذا الأمر لم يبتعد عنه كثيرًا «روبرت إي كافانو» في كتابه «مواجهة الموت» الذي نشره عام 1974 وحصر من خلاله الخوف من الموت في أربعة أشياء هي: عمليَّة الاحتضار، الموت الشخصيّ، فكرة الحياة الأخرى، النسمة السحيقة أو المطبقة التي ترفرف حول المحتضر [4]. ويتكرَّر الأمر الذي نلاحظه بقوَّة إذا قمنا باستقراء للمخاوف التي رصدها المعاصرون تجاه الموت، بأنَّ الباحثين والمفكِّرين المعاصرين لم يتجاوزوا معالجة ابن مسكويه للخوف من الموت.

[1]- المصدر نفسه.

[2]- أحمد محمد عبد الخالق، قلق الموت، ص46.

[3]- See, Schulz, R. Death Anxiety: Intuitive and Empirical Perspectives, In: Larry Bugen (Ed) Death and Dying: Theory, Research, Practice, W.C. Brown Co, 1979, pp.66 -87.

[4]- أحمد محمد عبد الخالق، قلق الموت، مرجع سبق ذكره، ص46.

كما نلاحظ تميُّز معالجة ابن مسكويه وتفوُّقها على ما سبقه من محاولات حاولت درء الغمِّ من الموت، ومن أشهر تلك المحاولات محاولة الفيلسوف اليونانيِّ سقراط 399 -470 Socrates ق.م) الذي رأى «أنَّ الموت قد يكون خيراً من الحياة، وأنَّه سيسمح لنا بتجنُّب ضروب العجز والبؤس المرتبطة بالشيخوخة»[1]. وقد انطلق سقراط لدفع الغمِّ من الموت انطلاقًا من اعتقاده بأنَّ النفس متمايزة عن الجسد، وعند الموت لا تفسد لفساده، بل تتحرَّر من سجنها وتعود إلى صفاء طبيعتها، وبناء على هذا التصوُّر لم يكن الموت عنده نهاية بل بداية لحياة أخرى تخلو من البؤس والشقاء وتحفُّها البرَكة والقداسة. لكن هذه الحياة الأخرويَّة السعيدة لن تكون للجميع وإنّما ستكون للأرواح التي مارست التفلسف وامتنعت عن كلِّ شهوات البدن.

ولم يبتعد أفلاطون كثيراً عن رؤية أستاذه سقراط عن الموت. بينما ذهب أبيقور (Epicurus 341 ق. م- 270 ق.م) إلى أنَّه العقبة الكبرى في سبيل السلام العقليِّ، ولذلك كان من الضروريِّ التغلُّب عليه؛ فقدَّم ما عُرف في تاريخ الفلسفة «الحجَّة الأبيقوريَّة» الشهيرة ضدَّ الخوف من الموت؛ والتي تنصُّ على أنَّه لا يعني شيئًا بالنسبة إلينا؛ حيث إنَّه طالما كنا موجودين فإنَّه غير موجود، ولكنه حينما يحلُّ فإنَّنا لا نكون موجودين. يقول أبيقور:» ليس الموت شرًّا لأنَّنا إذا متنا لا نكون، وإذا كنا فلا نموت، وإذا جاء الموت فلا يكون هناك شعور لأنَّ الموت نهاية للشعور، ومن الحكمة ألَّا نخاف ممَّا نعلم أنَّه عندما يأتي لن نشعر به»[2]. وهكذا لا يجب أن يثير الموت القلق في الأحياء ولا الموتى، فهو بالنسبة إلى الأوائل ليس موجودًا، أمَّا الأخيرون فإنَّه لا يصبح لهم وجود حينما يحلّ [3].

من الملاحظ قصور الحجَّة الأبيقوريَّة بوصفها علاجًا للخوف من الموت؛ إذ إنَّها تنطبق على جانب واحد من هذا الخوف وهو الألم الذي يحدث أثناء الموت، فهو يعالج الموضوع بسطحيَّة غريبة وبطريقة تشبه عدم وجود المرء بالدار لدى وصول زائر غير مرغوب فيه.

ولا يختلف الأمر كثيراً إذا ما انتقلنا إلى الحكيم الرومانيِّ والفيلسوف الرواقيِّ لوكيوس سينكا (Seneca 4 ق.م- 65 م) الذي رأى أنَّ الحياة قد مُنحت لنا شريطة أن نلاقي الموت، فهي تتحرَّك باتجاهه، لذلك فإنَّ من الحماقة أن يرهبه المرء. وحتى نتخلَّص من الخوف من الموت عند سينكا فعلى المرء أن يفكر دومًا فيه بوصفه نهاية الجسد وليس نهاية النفس، وأنَّه أمر لا مفرَّ منه.

أما أبكتيتوس الرواقيُّ (60-117م) فيرى أنَّ الموت ليس مفزعًا وإلَّا لبدا لسقراط كذلك، لكن الفزع يكمن في فهمنا نحن عنه، فليس الموت أو الألم هو الشيء المخيف وإنما خشية الألم أو

---

[1]- المرجع السابق، ص21-22.

[2]- أنظر، زكي نجيب محمود، أحمد أمين، قصَّة الفلسفة اليونانيَّة، القاهرة، مكتبة النهضة المصريَّة، 1981، ص251.

[3]- جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، ترجمة يوسف كامل حسين، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أبريل 1984، ص67.

الموت [1]. وهنا تبدو المعالجة سطحيَّة للغاية، يغلب عليها الدوران حول المشكلة من دون النفاذ إلى صميمها، فلا يعدو الأمر مجرَّد التسليم بالأمر الواقع، وأنَّه مادام ليس هناك مفرٌّ أو مهرب من الموت فعلينا أن نتقبَّله بصدر رحب.

أمَّا صوفيَّة الإسلام فكانوا يدرؤون الخوف من الموت باعتقادهم أنَّه موعد لقائهم بالحبيب، وهؤلاء في غالب الأمر يستبطئون مجيء الموت ويحبّون مجيئه ليتخلَّصوا من دار المعاصي، وينتقلون إلى جوار ربِّ العالمين. ومن أشهر صوفيَّة الإسلام الذين عالجوا مسألة الخوف من الموت بهذه الطريقة الصوفيُّ الكبير محي الدين بن عربي الذي رأى أنَّ الخوف من الموت ظاهرة عامَّة لدى الناس جميعًا، لكن أسباب الخوف تختلف من شخص لآخر؛ فالمؤمن يخاف من الموت لعلمه بأنَّه قد اكتسب سيئات وأنه سيُسأل عنها، والعارف - الذي هو أعلى مرتبة من المؤمن- يخاف من الموت لاستحيائه من الله عند القدوم عليه واللّقاء معه وذلك لعلمه بجلال الله وهيبته. أمَّا الكافر، فإنَّه يخاف الموت؛ لأنَّه بالموت سيفارق كلَّ ما ألفه واعتاده في هذه الحياة الدنيا [2]؛ إذ عرَّف الموت بأنَّه « انتقال خاصٌّ على وجه مخصوص، فمن كونه انتقالاً يستند إلى حقيقة إلهيَّة خاصَّة»[3]. كما أنَّ صدر الدين الشيرازي (980-1050 هـ) يرى أنَّ الموت هو انتقال الإنسان من حال النقص إلى حال الكمال؛ إذ يقول: «واعلم أنَّ المجيء إلى الدنيا هو النزول من الكمال إلى النقص والسقوط من الفطرة الأولى، ولا محالة أنَذ صدور الخلق من الخالق ليس إلَّا على هذا السبيل، والذهاب من الدنيا إلى الجنَّة ثمَّ إلى جوار الله هو العود إلى الفطرة، والتوجه من النقص إلى الكمال ولا محالة رجوع الخلائق إلى خالقهم»[4].

وإذا ما عدنا مرة أخرى إلى الفكر الغربيِّ المعاصر فنجد معالجة الفيلسوف الألمانيَّ أرثر شوبنهاور1860- 1788 Arthur Schopenhauer م الذي أكَّد على أنَّ الوعي الذي يعرف الموت والذي يدمِّره الموت، لا يخشى الموت. كما أنَّ الألم النابع من الموت لا يمكن أن يكون هو ما يجعلنا نخافه؛ حيث إنَّ الألم ينتمي إلى المرض والشيخوخة أي إلى الحياة، أمَّا الموت فهو لحظة الانشطار التي يتوقَّف فيها وعي المرء. ولذلك لا يجب علينا أن نخشى الموت [5].

ممَّا تقدَّم يمكننا القول أنَّ الفلاسفة السابقين واللَّاحقين لابن مسكويه قد داروا حول مشكلة الموت من دون أن ينفذوا إلى صميمها كما فعل فيلسوفنا، إذ إنَّهم- كما لاحظنا- يكتفون بعرض بعض المخاوف من الموت ثمَّ سرعان ما يتجاوزونها إلى الاعتراض عليها بطريقة تبتعد إلى حدٍّ كبير عمَّا ينبغي أن يلتزم به الفيلسوف الجادُّ في بحثه، فهم في الغالب يعتقدون بفكرة مسبقة وهي

[1]- المرجع السابق، ص 79.

[2]- أنظر، أمل مبروك، فلسفة الموت- دراسة تحليليَّة، بيروت، دار التنوير، 2011، ص86.

[3]- ابن عربي، الفتوحات المكيَّة، ج4، بيروت، دار صادر، د.ت، ص290.

[4]- صدر الدين الشيرازي، حقائق البعث والنشور، تحقيق عبد القادر عطا، دار التراث العربي، 1984، ص53.

[5]- جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، مرجع سبق ذكره، ص 182.

أنَّه لا مبرِّر للخوف من الموت، فإذا وجدوا أفكارًا تعارض تمامًا هذه الفكرة المسبقة، لم يكلِّفوا أنفسهم الوقوف وقفة أطول عند هذه الأفكار، لأنَّهم بناء على الاعتقاد بهذه الفكرة، يسارعون بالردِّ على غيرها من أفكار تتنافى معها. وبذلك ظلَّت عندهم مشكلة الموت من المشكلات التي يبحث لها الإنسان عن حلٍّ، تمامًا كما نبحث في مشكلة الحياة.

هذا الأمر أكَّده جاك شورون بشأن المسألة؛ إذ رأى أنَّه رغم الإسهامات المهمَّة التي قدَّمها كثير من الفلاسفة الغربيين منذ القرون السابقة على الميلاد وحتى الفلاسفة الراهنين وعلماء التحليل النفسيِّ، إلَّا أنَّ مشكلة القلق من الموت لا تزال بأسرها أبعد ما تكون عن الوضوح، ولا يزال التساؤل قائمًا حول ما إذا كان سيصبح من الممكن يومًا تقرير ما إذا كان الخوف من الموت هو في نهاية المطاف القلق «الأساسي». لينتهي إلى نتيجة فحواها أنَّه لا يجب على الفلاسفة أن يسلِّموا الراية إلى علماء التحليل النفسيِّ، حيث إنَّ المشكلة فلسفيَّة خالصة، وذلك بناءً على فكرة أبيقور القائلة بأنَّ مهمَّة الفلسفة هي أن تداوي «جراح القلب»؛ لذلك فإنَّنا ما زلنا في حاجة لأن تعالج الفلسفة هذه الجراح الناتجة من الخوف من الموت، سواء أكان موت المرء أم موت أولئك الذين نحبُّهم. ويحسن في هذا الصدد أن نعيد إلى الأذهان ملاحظة السياسيِّ الفرنسيِّ الشهير كليمنصو Georges Clemenceau 1841- 1929 الذي رأى أنَّ الحرب أمر أكثر خطورة من أن يترك كليَّة للجنرالات، ومن ثمَّ ينبغي أن نرفض ترك معالجة هذه الجراح كليَّة للمحلِّلين النفسيّين أو للأطباء النفسيّين [1].

ويترتَّب على رأينا في تلك المعالجات السابقة واللَّاحقة لدفع الغمِّ من الموت أو درء الخوف منه، نرى أن ابن مسكويه قدَّم أفضل محاولة في هذا الإطار، إذ كان عميقًا في آرائه، محدِّدًا المخاوف منه تحديدًا دقيقًا قبل أن يقوم بالردِّ عليها وتفنيدها بسلاسة ويُسر. صحيح أنَّه قد غلب عليه الحسُّ الصوفيُّ الغائيُّ لكن اتَّسمت ردوده بكثير من العقلانيَّة. كما كان دفعه لهذه المخاوف نابعًا من إيمانه بالتفاؤل وتغليب الخير على الشرّ. هذا الأمر الذي لم يتوفَّر في المعالجات الغربيَّة التي وصل بها الحال أمام عجزها الواضح في معالجة المشكلة إلى أن تنشئ عِلمًا في العقود الأخيرة أطلقت عليه علم دراسة الموت والاحتضار Thanatology، وقد تطوَّر هذا العلم في أيامنا الرَّاهنة حتى أصبح مقرَّرًا دراسيًّا في العديد من الجامعات الغربيَّة.

[1]- المرجع السابق، ص 286.

علم المبدأ I.MOLMABDAA
العدد التاسع - 1446هـ - ربيع 2024م

خاتمة

في ختام هذا البحث حول «دفع الغمِّ من الموت في الفلسفة الإسلاميَّة» من خلال ابن مسكويه أنموذجًا، نخلص إلى نتائج مهمَّة عدَّة، من أبرزها:

أوّلًا- إنَّ الفلسفة الإسلاميَّة نجحت في تقديم رؤية أكثر عمقًا لدرء الغمِّ من الموت، متفوِّقة بذلك على الفلسفة الغربيَّة قديمها وحديثها، إذ انتهى فلاسفة الإسلام، وعلى رأسهم ابن مسكويه، إلى أنَّ الموت لا يستحقُّ الخوف، بل جدير بأن يتمنَّاه الإنسان؛ ذلك لأنَّه عبارة عن حدٍّ للإنسان وموصل إلى فعليَّته؛ لأنَّه كائنٌ حيٌّ ناطقٌ مائت. وعلى هذا الأساس، فالموت هو الوصول إلى النهاية والكمال، وبسببه يصل الإنسان إلى أُفقه الأعلى. وعلى هذا، فلو علم شخص أنَّ كلَّ شيء له حدٌّ معينَّ، وعلم أن حدَّه مركَّب من جنس - وهو كونه كائنًا حيًّا - وفصلين، وهما كونه ناطقًا وأنّه مائت، فسوف يعلم أنّه ستُحقَّق فصوله. وحينئذٍ لا يخاف من الموت سوى الجاهل، أمَّا العالم فإنَّه يشتاق إلى الموت؛ أو لذلك الكمال الذي يناله.

ثانيًا - لم يكتف ابن مسكويه بالرؤية الدينيَّة الإسلاميَّة التي تنظر إلى الموت بوصفه هدفًا؛ فالمسلم مطمئنٌّ إلى مصيره بعد الموت، طامع في رحمة ربِّه ومولاه، حسن الظنِّ بخالقه، يسأل الله دائمًا أن يخفِّف عنه سكرات الموت في الدنيا، وأن يجعل قبره روضة من رياض الجنَّة في الحياة البرزخيَّة، وأن يورثه الجنَّة في الآخرة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقا. بل عمل على درء الغمِّ من الموت بطريقة فلسفيَّة، عمل فيها على دفع الخوف الذي يكون من توقُّع مكروه وانتظار محذور، فأراد أن يقول إنَّه ينبغي على العاقل ألاَّ يخاف من الموت فيتعجَّل مكروه التألُّم به وهو لم يقع بعد. فإنَّما يحسن العيش وتطيب الحياة بالظنِّ الجميل والأمل القويّ.

ثالثًا- إنَّ الإنسان عند ابن مسكويه مكوَّن من جوهرين هما النفس والجسد، أولهما جوهرٌ روحانيٌّ وهو خالد باقٍ لا يقبل الفناء أو التغيرُّ أو الاستحالة في ذاته، وإنما يقبل كمالاته وتمامات صورته. وثانيهما جوهرٌ جسمانيٌّ وهو غير فانٍ ولا متلاشٍ من حيث هو جوهر، وإنَّما يقبل التغيرُّ والاستحالة. وهو بذلك يختلف عن باقي فلاسفة الإسلام الذين رأوا أنَّ الإنسان مكوَّن من بنيان ماديٍّ وهو الجسد؛ وهو الذي يموت، أي أنَّه يتحلَّل ويتوقَّف عن أداء دوره حين الموت، وجوهرٌ روحانيٌّ وهو النفس؛ وهي لا تموت ولا تتأثَّر بالموت اللَّهم إلاَّ أنَّها تتخلَّص من كدر البدن، وتظلُّ حيَّة نقيَّة تسعد أو تشقى على قدر علمها وعملها في الحياة الدنيا. وابن مسكويه هنا يقترب من جوهر قانون البعث الإسلاميِّ الذي يرى أنَّه إذا ما نُفخ في الصور تلملم الجسد الإنسانيُّ بشفرته الأساسيَّة من دون أن تنقص منه ذرَّة واحدة. ويبتعد -في الآن نفسه- عن القول بالبعث الروحانيِّ الذي قال به بعض فلاسفة الإسلام الذين

ساروا على خطى فلاسفة اليونان من أمثال الفارابي وابن رشد.

رابعًا- على الإنسان العاقل العالم ألَّا يخاف من الموت؛ لأنَّ الموت- وفقًا لابن مسكويه- ليس شيئًا أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها، وأنَّ النفس تبقى في راحة سرمديَّة ولذَّة أبديَّة. وأنَّ ألم الموت لا يكون؛ لأنَّ الألم بالإدراك والإدراك للحيِّ لا للميت لأنَّه فقد نفسه. وأنَّ الخوف الذي ينبغي أن يحترز منه الإنسان هو الخوف من العقاب بعد الموت، وهو خوف من الذنوب لا من الموت؛ لذا يجب على الإنسان الابتعاد عن الذنوب. كما عليه ألَّا يأسف على ما تركه من مال وولد لأنَّ الحزن لا يكون إلَّا لأجل شيء مكروه، ولو بقي الناس على ما هم عليه من حياة من دون موت لما وسعتهم الأرض.

خامسًا- اتَّضح من تناول ابن مسكويه لمسألة دفع الغمِّ من الموت تأثُّره بالتعاليم الدينيَّة الإسلاميَّة، فلم يقتصر في عرضها على النظر العقليِّ فقط. وذلك على خلاف ما ذهب إليه محمد أركون الذي رأى أنَّ ابن مسكويه من أنصار نزعة الأنسنة، وأنَّ عقيدته الفلسفيَّة مبنيَّة على مبادئ ومجرَّبات عقليَّة. أمَّا الدين لديه فلا يتعدَّى كونه عبارة عن ممارسة ثقافيَّة وجملة من التوجُّهات الأخلاقيَّة المناسبة للأطفال والناس البسطاء. ولا شكَّ في أنَّ هذه رؤية بعيدة كلَّ البعد عن الصَّواب؛ إذ إنَّ من ينظر في مؤلَّفات ابن مسكويه سيلاحظ بسهولة ذلك التوافق بين مباحثه الفلسفيَّة ومطالب الشريعة؛ بل سيجد حسًّا صوفيًّا ظاهرًا؛ حيث يعتبر ابن مسكويه أنَّ «الجائر الأعظم» هو من يتحاشى الانصياع للدين والشريعة. وهذا موضوع يستحقُّ دراسة مفصَّلة تنوء بعرضها دراستنا هذه.

قائمة المصادر والمراجع

أوَّلًا- المصادر والمراجع العربيَّة:

1. ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، أو كتاب الطهارة في تهذيب الأخلاق، تحقيق: السيد حسين المؤمني، طهران، المعهد العالي للعلوم والثقافة الإسلاميَّة- مركز إحياء التراث الإسلامي، ط1، 2016.
2. ابن مسكويه، الخوف من الموت- أسبابه وعلاجه، منشورة بكتابه «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق أو كتاب الطهارة في تهذيب الأخلاق»، تحقيق: السيد حسين المؤمني، طهران، المعهد العالي للعلوم والثقافة الإسلاميَّة- مركز إحياء التراث الإسلامي، ط1، 2016.
3. ابن عربي، الفتوحات المكيَّة، ج4، بيروت، دار صادر، د.ت.
4. أحمد محمد عبد الخالق، قلق الموت، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة (111)، مارس 1987.

5. الأصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1983.

6. الجرجاني، التعريفات، تحقيق محمد علي أبو العباس، القاهرة، دار الطلائع للنشر والتوزيع، 2014.

7. الكندي، في الحيلة لدفع الأحزان، ضمن رسائل فلسفيَّة، تحقيق وتقديم عبد الرَّحمن بدوي، بيروت، دار الأندلس، ط2، 1980.

8. أمل مبروك، فلسفة الموت- دراسة تحليليَّة، بيروت، دار التنوير، 2011.

9. جاك شورون، الموت في الفكر الغربيّ، ترجمة يوسف كامل حسين، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أبريل 1984،

10. حيدر ناظم محمد، ريام حسن سوادي، الموت من الفلسفة اليونانيَّة إلى العصور الوسطى، بغداد، بيت الحكمة، مجلة دراسات فلسفيَّة، (العدد 51).

11. زكي نجيب محمود، أحمد أمين، قصَّة الفلسفة اليونانيَّة، القاهرة، مكتبة النهضة المصريَّة، 1981.

12. صدر الدين الشيرازي، حقائق البعث والنشور، تحقيق عبد القادر عطا، دار التراث العربي، 1984.

13. عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط3، 2000.

14. قسطنطين زريق، تهذيب الأخلاق لمسكويه، بيروت، الجامعة الأميركيَّة في بيروت، 1966.

15. محمد أركون، نزعة الأنسنة في الفكر العربي – جيل مسكويه والتوحيدي، ترجمة هاشم صالح، بيروت، دار الساقي، ط2، 2006.

ثانيًا- المراجع الأجنبيَّة:

1. John Daintith, Elizabeth A. Martin, A Dictionary of Science, Oxford University press, New York, 2010.

2. Schulz, R. Death Anxiety: Intuitive and Empirical Perspectives, In: Larry Bugen (Ed) Death and Dying: Theory, Research, Practice, W.C. Brown Co, 1979.